إمبراطورية جستنيان

تأليف
دكتورة إسمت غنيم
استاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى
جامعة الملك عبد العزيز

الناشر: دار المجمع العلمي بجدة
١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م

المحتويات

الموضـــوع	صفحـــة
مقـــدمة	٥ — ١٠
الفصل الأول : المؤثرات المحيطة بجستنيان	١١ — ٢٤
الفصل الثانى : جستنيان والمثالية الرومانية . .	٢٥ — ٤٦
الفصل الثالث الإدارة والتجارة فى عصر جستنيان	٤٧ — ٥٨
الفصل الرابع جستنيان والاستبداد القيصرى البابوى	٥٩ — ٦٨
الفصل الخامس : جستنيان المشرع الأعلى	٦٩ — ٧٨
الفصل السادس تقييم انجازات جستنيان	٧٩ — ٩٢

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

لعل أنسب اسم يطلق على الدولة الرومانية الشرقية فى الفترة الزمنية الممتدة من عام ٥٢٧ — ٥٦٥ م هو « امبراطورية جستنيان » ، لأن هذه الإمبراطورية لم تكن هى نفسها الإمبراطورية الرومانية القديمة ، كما أنها لم تكن كذلك الإمبراطورية البيزنطية بحدودها التى عرفت بها خلال الشطر الأكبر من العصور الوسطى ، بل إنه لم تمض على وفاة جستنيان أكثر من ثلاث سنوات حتى تغيرت حدود هذه الإمبراطورية بالفتح اللومباردى لشمال إيطاليا .

فهذه الإمبراطورية امتدت بفضل جهود جستنيان واستمرت قائمة طوال عهده ، وبدأت حدودها تتغير بعد وفاته .

والواقـــع أن جستنيان يحتل مكانة خاصة فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية الشرقية، فهو الإمبراطور الرومانى الشرقى ، ذو الأفكار والميول اللاتينية الغربية ، ومن ثمة فقد اختلف المؤرخون المعاصرون والمتأخرون زمنيا فى تقييم هذا الإمبراطور بأفكاره ومبادئه السياسية ، وما بذله فى سبيل الإمبراطورية من جهود . أنصفه فريق منهم وهم قليلون ، واتهمه الفريق الآخر وهم الأغلبية ، رفعه بعضهم إلى القمة ، وهوى به البعض منهم إلى الحضيض .

. وفى هذا البحث نحاول أن نصل إلى الحقيقة التاريخية المجردة عن هذا الإمبراطور ، والإنجازات التى حققها للإمبراطورية خلال حكمه .

ويرجع الفضل فى تسجيل الأحداث التاريخية الخاصة بعصر جستنيان إلى اثنين من المؤرخين المعاصرين ، هما بروكوبيوس Procopius ، وأجاثياس Agathias وينتمى بروكوبيوس فى الأصل إلى مدينة قيصرية فى فلسطين ، وقد رافق القائد بليزاريوس أثناء حملاته العسكرية ، وكان شاهد عيان لمعظم الأحداث التى رواها فى مؤلفه الذى يعرف باسم « التاريخ السرى » Arcana Hisoria ، ويعطى فيه تفصيلا لحروب جستنيان ضد الفرس ، الوندال ، القوط ، ويختلف الأحداث حتى سنة ٥٥٤ م . كما ضمنه كذلك قذفاً على جستنيان وثيودورا وبليزاريوس وزوجته . ولذلك لم ينشر هذا الكتاب أثناء حياته . ويقول المؤرخ رانسيمان إن « بروكوبيوس وإن كان كتابه المعنون « التاريخ السرى » إنما هو مجموعة شتى من الخوض فى السير والأعراض ، إلا أنه ينبغى أن يوضع بسبب ما دونه عن حروب الإمبراطور ، فى مصاف عظماء المؤرخين فى جميع العصور ، فقد كانت لغته قوية ، وحكمه واضحا ، ووصفه للأشياء حيا »(١) .

ولبروكوبيوس كتاب آخر عن المبانى والحصون يسمى De Aedificiis الغالب أنه كتبه فى الفترة من ٥٥٣ — ٥٥٥ م . وقد أثنى فيه على

---

(١) Runciman, S.: Byzantine Civilisation, Seventh impression, 1975, p. 243.

Dolger, F. : Byzantine Literature, C. M. H. vol. IV, part II, ed. Hussey, 1967, p. 228.

الإمبراطور جستنيان لإنشائه العديد من المبانى اللازمة لكل الأغراض من الكنائس حتى القناطر والتحصينات(١) .

أما معاصرة المتأخر أجاثياس(٢) الذى ولد فى عام ٥٣٦م وتوفى فى عام ٥٨٢ م ، فهو كذلك مؤرخ مرموق ، ولكنه كان على نقيض بروكوبيوس فقد كان شاعراً ،وكثيراً ما كان استعماله للأسلوب البلاغى يطغى على كتابته، ويغلف معانيه بغشاوة كالضباب أحيانا .

وتاريخه الذى يعرف باسم Historiarum دون فيه الأحـــداث التى وقعت فى الفترة الزمنية الممتدة من عام ٥٥٢ — ٥٥٨م ، ثم أكمل الأحداث من عام ٥٥٨ — ٥٨٢م . وقد نشر مؤلفه هذا فى مجموعة بون البيزنطية Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae التى نشرت فى عام ١٨٢٨ م فى ألمـانيا .

كذلك كانت الاستفادة كبيرة من الطبعة الجديدة لمجموعة كمبردج للعصور الوسطى Cambridge Medieval History التى أشرفت على نشرها الأستاذة جوان هسى Joan Hussey ، أستاذة تاريخ العصور الوسطى بجامعة لندن ، وظهرت هذه الطبعة الجديدة فى عامى ١٩٦٦ — ١٩٦٧ . ويختص الجزء الرابع منها بالتاريخ البيزنطى ، وينقسم إلى مجلدين ، الأول خاص بالتاريخ السياسى ، والثانى خاص بالتاريخ الحضارى للدولة البيزنطية .

---

(١) Dolger : op. cit. p. 228.

(٢) فيما يتعلق بأجاثياس انظر :

Runciman : op. cit., p. 243.
Dolger : op. cit., p. 228.

هذا بالإضافة لمؤلفات فازيلييف Vasiliev واستروجورسكى Ostrogorsky ورانسيمان Runciman ، وغيرهم من المؤرخين الغربيين .

كذلك بعض المؤلفات العربية التى ظهرت فى تاريخ الدولة البيزنطية ، وأهم ما يذكر منها : مؤلفات الأستاذ الدكتور عمر كمال توفيق ، والأستاذ الدكتور السيد الباز العرينى ، والأستاذ الدكتور أسد رستم .

ولعلى بهذا البحث أكون قد أضفت شيئاً جديداً إلى المكتبة العربية ، يمكن أن يقدم الفائدة العلمية للباحثين فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية .

والله الموفق ..

١٢ أبريل ١٩٧٧ إسمت غنيم

الفصل الأول

المؤثرات المحيطة بجستنيان

ـ آراء بعض المؤرخين فى جستنيان .

ـ أهم مستشارى ومعاونى الإمبراطور :

ثيودورا

نارسيس

بليزاريوس

تريبونيان

ـ المشاكل الداخلية التى واجهته فى بداية عهده .

يقول المؤرخ فيشر عن جستنيان: « إن امبراطوراً طفحت دخيلته بالغيرة وامتلأ رأسه بالغرور، واتصفت أخلاقه بالتردد، وهو مع ذلك لا يتهيب الدخول فى مشروع مهما عظم، ولا يستصغر عملا من أعمال الإدارة مهما صغر، ولا يستهين طيرة مهما هانت، ولا يعتبر أمراً بعيد المنال مهما بعد، لا يستطيع أن يثير الإعجاب فى نفس أحد »(١).

ولم يكن هذا هو الانتقاد الوحيد الذى تعرض له جستنيان من جانب المؤرخين، فقد تعرض هذا الإمبراطور للكثير من النقد، وخاصة فيما يتعلق بأفكاره السياسية الخاصة باستعادة السيادة الرومانية على الأقاليم الغربية التى استولى عليها البرابرة الجرمان، واعتبروا سياسته فى هذا المجال وهماً عسير التحقيق، باهظ التكاليف، وأنها كانت ترفاً وضرراً، وأن ضررها كان أكثر من نفعها، وأن جهوده العسكرية فى الغرب كانت من أجل تحقيق أطماعه الشخصية، وأنه رغم أن حروبه فى الغرب قد كلفت الإمبراطورية الكثير من المال والرجال، إلا أن نتائجها لم تكن دائمة، وأن فتوحاته هذه قد انهارت بعد وفاته .(٢)

---

(١) فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول، ص ٥٨ .

(٢) Vasiliev : History of the Byzantine Empire, vol. I, pp. 141—142.

فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ج ١، ص ص ٥٢ — ٥٣ .

ديل : بيزنطة، عظمتها واضمحلالها، ملحق بكتاب بينز، الامبراطورية البيزنطية، ترجمة د. حسين مؤنس ص ص ٣٣١ — ٣٣٢ .

عمر كمال توفيق، تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص =

وقبل أن نناقش هذه الآراء ، ونوضح مدى صحتها ، يجب أن نستعرض عصر هذا الإمبراطور وجهوده فى الداخل والخارج ، والإنجازات التى حققها للإمبراطورية حتى يكون حكمنا صحيحاً مبنيا على الحقائق التاريخية الواضحة .

يرجع الفضل فى ظهور جستنيان على مسرح الأحداث السياسية إلى خاله جستين الذى تختلف الآراء فيما يتعلق بأصله ، فالبعض ينسبه إلى الأصل الصقلبي ، والبعض يقول : إنه من أصل رومانى أو ألبانى ، على أن الأرجح أنه من أصل إيلليرى ، وأنه ولد فى قرية بدريانا Bederiana فى غرب البلقان بالقرب من مدينة اسكوب الحالية بإقليم إيلليريا البلقانى ، الذى بقيت اللاتينية فيه لغة التخاطب بين الناس دون سائر أقاليم البلقان الأخرى .(١)

وكان جستين وضيع الأصل ، أتى إلى العاصمة القسطنطينية ، والتحق بالخدمة فى الجيش حيث أظهر كفاءته كجندى باسل ، فألحق بالحرس الإمبراطورى ، وظل يتقدم حتى أصبح قومس(٢) Comes إحدى فرق الحرس . وكانت كل مؤهلات جستين محصورة فى كونه جنديا باسلا ،

= العربى : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص ٦٩ .
نبيه عاقل : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٧٦ .

(١) أسد رستم : الروم ، جـ ١ ، ص ص ١٦٥ — ١٦٦ .
فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٤٦ .
Runciman : Byzantine Civilisation, p. 35.

(٢) القومس : هو القائد الذى يقود الفرقة العسكرية المكونة من ثلاثمائة أو أربعمائة جندى . أنظر :
Runciman : Byzantine Civilisation, p. 139.

وجاهلا بكل ما عداها من صفات ، فقد كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، متطفلا على السياسة ، جاهلا علم اللاهوت ، كما كان مسنا حين وقع عليه الاختيار ، بتدبير لا يزال غامضا ، ليتولى العرش بعد وفاة الإمبراطور انستاسيوس فى عام ٥١٨ م .

وقد عاش جستين حتى صار إمبراطوراً دون أن ينجب ولداً ، لذا فقد تبنى ابن أخت له من إقليم إيليريا كذلك ، وأطلق عليه اسم رومانى هو جستنيانوس Justinianus ، وهو دينى الأصل مثله استقدمه فى حداثته إلى القسطنطينية ، وعنى بتثقيفه وتهذيبه ، وكانت اللغة الأصلية لجستنيان هى اللاتينية ، ولكنه كان يتكلم اليونانية بلهجة رديئة . وحين تولى جستين العرش كان جستنيان قد أنهى دراسته ، وأصبح على دراية كبيرة بالسياسة وكافة الشئون اللازمة لمن يعمل فى الحكم ، وصار الساعد الأيمن لخاله ، وفى ٥٢٥ أضفى عليه لقب قيصر Caesar ، وفى ٤ أبريل ٥٢٧ منحه لقب Augustus وأعلنه خليفته على العرش البيزنطى(١) .

وبعد أن توفى جستين فى ٥٢٧ م ، تولى جستنيان الحكم ، وكان فى الخامسة والأربعين من عمره ، صهرته الخبرة ، وحنكته التجارب ، وقد أولى عناية كبيرة لكل الأعمال فى الدولة ، فكان يرى أثناء الليل مكبا على دراسة التقارير التى يرفعها إليه الموظفون بالدولة ، أو يرى وجميع من

---

(١) أسد رستم : الروم ، جـ ١ ، ص ص ١٦٦ — ١٦٧ .
عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص ٤٤ .

بالقصر نائمون وهو يذرع أبهاءه جيئة وذهاباً ، مفكراً فى شئون الدولة حتى وصفه أحد رجال بلاطه بأنه « الإمبراطور الساهر »(١) .

وكان جستنيان شديد الإعجاب بمواهبه ومؤهلاته ، شديد الثقة فى عظمته ولكنه رغم هذا كان يحترم آراء مساعديه ومستشاريه ، وكان أهمهم زوجته ثيودورا ، والقائدان اللامعان نارسيس وبليزاريوس اللذان حقق جستنيان عن طريقهما الكثير من الانتصارات والفتوحات للإمبراطورية، وتريبونيان الساعد الأيمن للإمبراطور فى مجال التشريع .

وفيما يتعلق بثيودورا ، فهى ابنة لأحد القبارصة ، وكان أبوها يعمل مروضاً للدببة بالسيرك . وقد ولدت ثيودورا بالقسطنطينية فى عام ٥٠٠ م . وفى سنوات عمرها المبكرة عملت ممثلة على المسرح ، وفى هذا الجو الملىء بالفساد والانحلال ، انحرفت ثيودورا التى عرفت بالجمال والرشاقة والذكاء وسرعة الخاطر، وكانت ثيودورا على حد تعبير المؤرخ المعاصر بروكوبيوس مصدر التسلية بالقسطنطينية ، كما كانت مصدر العار لها كذلك. ويستطرد بروكوبيوس قائلا : إن كل من كان يلتقى بثيودورا فى الطريق يأنف من الاقتراب منها ، ويسارع بالابتعاد عنها ، وهكذا عركت ثيودورا طول الرحلة ، وكثرة الشقاء ، فترك ذلك تأثيره فى شخصيتها .(٢)

على أن المؤرخ فازيلييف Vasiliev يوضح أن بروكوبيوس كان

---

(١) Procopius : Historia Arcana, pp. 80 — 81.
عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص ٤٥ .

(٢) Procopius : Historia Arcana, ed. J. Havry, pp. 60—61.

حريصاً على أن يسيء إلى سمعة جستنيان وثيودورا ، وهو لهذا راو مغرض يجب أن نتقبل روايته بشيء من الحذر(١)

ومهما يكن ، فإن ثيودورا لم تلبث أن هجرت العاصمة ، وسافرت إلى شمال إفريقية حيث أمضت هناك عدة سنوات ، ثم عادت وهي مختلفة تماماً عن شخصيتها الأولى ، فقد اتصفت بالتعقل والاتزان ، وابتعدت عن المسرح ، واعتزلت الناس ، وأبدت اهتماماً كبيراً بالمسائل الدينية ، وأمضت وقتها في غزل الصوف ، وقد رآها جستنيان وهي على هذه الصورة ، فبهره جمالها ، ونقلها إلى القصر الإمبراطوري ، وأنعم عليها بلقب شرف وهو : بطريقة Patricia ، ثم تزوجها في عام ٥٢٢ م(٢).

ومنذ تزوجها جستنيان ، وحتى وفاتها في ٥٤٨ م وهي تمارس نفوذاً كبيراً على زوجها ، حتى يمكن القول : إن الإمبراطورية في تلك الفترة كان يحكمها جستنيان وثيودورا معاً ، وقد أثبتت كفاءة ممتازة ، ومقدرة كبيرة في تصريف شئون الدولة ، ويعود إليها الفضل في احتفاظ جستنيان بعرشه بعد أن وقفت بحزم وصمود أمام تلك الزوبعة التي كادت تقضي عليه ، والتي تمثلت في الفتنة المعروفة باسم نيقا Nika ، كما سيتضح من عرضنا للأحداث المقبلة

---

(١) Vasiliev : History of the Byzantine Empire, Vol. I, p. 132.

(٢) Vasiliev : Op. cit., Vol. I., p. 132.
أسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ١٦٩ .
فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٤٧

أما عن نارسيس (٤٧٨ — ٥٧٣ م) فقد ولد فى إرمينيا، وكان طواشياً ضئيل الحجم ، ولكنه لطيف وأنيق المظهر، وكان فى البداية رئيساً للطواشية Sacellarius فى الحرس الإمبراطورى ، ثم أصبح كبير الحجاب :

Praepositus Sacri Culiculi

ونظراً لأنه كان طواشياً ، فقد كان لا يطمع فى العرش الإمبراطورى، وكان ذلك سبباً فى حسن العلاقات بينه وبين جستنيان .

وقد شارك نارسيس فى القضاء على فتنة نيقا فى ٥٣٢ ، كما شارك فى الحروب التى قام بها جستنيان فى إيطاليا ضد القوط الشرقيين مع زميله بليزاريوس . وفى عام ٥٣٩ استدعى نارسيس إلى القسطنطينية ، ثم غادرها فى صيف ٥٥١ على رأس القوات التى ذهبت إلى البلقان لمقاتلة قبائل الهون والجيبد واللومبارد . وفى نفس العام ذهب إلى إيطاليا لمواصلة القتال ضد القوط الشرقيين بقيادة زعيمهم توتيلا Totila الذى هزمه نارسيس ، ثم واصل حروبه فى شمال إيطاليا ضد الألمان والفرنجة والبرجنديين الذين هاجموا شمال إيطاليا ، وأقر السيادة الإمبراطورية هناك ، وحكم إيطاليا وأبدى الكثير من العنت والظلم تجاه الأهالى ، كما تشدد فى جمع الضرائب منهم ، وفى عام ٥٧٦ استدعاه الإمبراطور جستين الثانى ، الذى عاقبه بعد أن اتهمه بأنه السبب فى إغراء اللومبارد على مهاجمة شمال إيطاليا على أن ما مر به من أحداث فى أواخر حياته لم يحجب عن الأنظار ما بذله من جهود فى خدمة الإمبراطورية وخاصة أثناء حياة الإمبراطور جستنيان(١).

---

(١) Vasiliev : op. cit., vol. I, pp. 137, 173.

وبالنسبة لبليزاريوس ، فهو يعتبر من أشهر القادة فى التاريخ البيزنطى كله ، ولد فى عام ٥٠٥ م . وكان صديقاً للإمبراطور جستنيان ، كما أن زوجته أنتونينا Antonina كانت صـــديقة للإمبراطورة ثيودورا . وقد بدأ بليزاريوس يلمع فى ميدان العسكرية وهو فى الخامسة والعشرين ، بعد أن أحرز الانتصار على الفرس فى موقعة دارا عام ٥٣٠ م. ثم عين قائدا للشرق ، وفى عام ٥٣٢ تمكن بالتعاون مع نارسيس من القضاء على فتنة نيقا ، ثم أرسله جستنيان فى عام ٥٣٣ إلى شمال إفريقية حيث تم له القضاء على مملكة الوانـدال بها ، وأسر زعيمهم وعاد به إلى القسطنطينية ، وبعد الاحتفال بانتصاره ، أرسل إلى إيطاليا فى محاولة استعادتها للإمبراطورية من يد القوط الشرقيين على أن العلاقات لم تلبث أن ساءت بينه وبين الإمبراطور جستنيان بعد أن علم أن القوط الشرقيين فى إيطاليا يرغبون فى تتويج بليزاريوس امبراطوراً عليهم ، فاستدعاه جستنيان إلى القسطنطينية بحجة الحاجة إليه لقتال الفرس الذين هاجموا الحدود الشرقية للإمبراطورية. على أن معاودة القوط الشرقيين للحرب ضد النفوذ الإمبراطورى اضطر الإمبراطور جستنيان لإرساله من جديد لإيطاليا ، ثم استدعاه فى عام ٥٤٩ . وفى عام ٥٥٩ قاتل بليزاريوس البلغار الذين هاجموا أسوار العاصمة البيزنطية وأجلاهم عنها .

ونظراً لشجاعة بليزاريوس فى القتال وسيطرته التامة على الجنود رغم تعدد عناصرهم ، ولكرمه وإنسانيته ، فقد تعلق به الجنود لدرجة كبيرة

Ostrogorsky : op. cit. pp. 70—73.

J. M. Hy. : Narses, Encyclopedia Britannica, 1965, U. S. A., vol. 16, p. 35.

أثارت مخاوف جستنيان ، مما جعله لا يطمئن إليه ولا يثق به . ومن ثمة فقد اتهمه بالتآمر ضده وتم القبض عليه وسجنه فى عام ٥٦٢ م .

ويقال : إن بليزاريوس قضى الفترة الأخيرة من حياته فى فقر وبؤس، حتى اضطر للتسول بعد أن فقد بصره. ولكن هذه الرواية غير حقيقية ؛ لأن الثابت أن جستنيان عفى عنه فى عام ٥٦٣ م وقربه إليه حتى وفاة الإمبراطور فى ٥٦٥[١] .

وبخصوص تريبونيان Tribonianus ، فقد ولد فى إقليم بامفيليه ، على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، فى أواخر القرن الخامس الميلادى ، وفى البداية اشتغل بمهنة المحاماة فى القسطنطينية ، وكان نبوغه ومهارته فى المحاماة مما لفت نظر جستنيان إليه ، فقربه وصار تريبونيان يتمتع بعطف الإمبراطور ، الذى عينه فى ٥٢٨ فى منصب رئيس دواوين الموظفين .... Magister officiorum وفى سنة ٥٣٠ م عينه وزيراً للقضاء ..... Quaestor Sacripalatii « حارس القصر المقدس » . وفى عام ٥٣٢ عزله من هذا المنصب تنفيذاً لرغبة الجماهير أثناء فتنة نيقا ، لكنه أعاد تنصيبه مرة أخرى فى عام ٥٣٤ م ، وظل يشغل هذا المنصب حتى وفاته فى ٥٤٥ م .

وقد هاجم المؤرخ بروكوبيوس تريبونيان واتهمه بالرشوة والإلحاد . ويبدو أن اهتمام تريبونيان بالفلسفة ، والفلك ، والتقويم كان وراء هذا

---

(١) Vasiliev : op. cit. vol. I, pp. 135—137.
Ostrogorsky : History of the Byzantine State, pp. 70—73.
T. A. R. : Belisarius, Encyclopedia Britannica, U. S. A., 1965, vol. 3, p. 438.